



معنى ومبني التجدد في علم الكلام

د. أحد قرا ملكي

اصطلاح «الكلام الجديد» هو أحد المفاهيم الجديدة في العصر الحاضر، ويعود طرحه في مجتمعنا إلى الشهيد الأستاذ مرتضى مطهري (١٢٩٨ هـ. ق)؛ حيث اعتبر خلال توضيجه لوظائف الحوزات العلمية: «إن التعرض لموضوعات علم الكلام الجديد من أهم وظائف الحوزات العلمية، والطلبة الشباب»^(١).
هذا وقد طرح اصطلاح «الإلهيات الجديدة»^(٢) في الغرب أيضاً، حيث كانوا يعتبرون شلابيرماخر^(٣) مؤسساً، وأباً للإلهيات المسيحية الجديدة^(٤)، التي عرفت بأنها نوع من أنواع الإلهيات المعتدلة^(٥) (الإلهيات الليبرالية، أو الليبرالية الكلامية)، والتي هي الحل الوسط بين القديم، والجديد في مجال الإلهيات؛ بناءً على هذا، يعتبر شلابيرماخر من عظماء علم الكلام المسيحي الجديد، وأيضاً، من المؤسسين لنوع خاص من الإلهيات الجديدة، المسماة الليبرالية الكلامية، أو الإلهيات المعتدلة^(٦).

وللحصول على فهم وتصور صحيح لمعنى، ومبني التجدد في علم الكلام، من الضروري أن نختار بدلاً من التحليل الذهني عملية التحقيق العيني (الخارجي)؛ يعني أن ندرس الحوادث الواقعية، والتاريخية في مجال الإلهيات، وعلم الكلام الإسلامي والمسيحي؛ لتتضح ماهية المقصود من التجدد في علم الكلام، وما هي مبانيه

(١) دكتور في جامعة طهران له دراسات متعددة في المنطق وفلسفة الدين.

(٢) الوظائف الأصلية والوظائف الفعلية للحوazat العلمية، ص ٤٨.

(٣) Modern Theology (٢).

(٤) فردریک شلابیرماخر (Fridrich Schleiermacher) (١٧٦٨ - ١٨٣٤) فیلسوف ومتکلم مسیحی پروتستانی.

(٥) آستون سایکس، فردریک شلابیرماخر، ترجمة منوجهر صانعی دره بیری، ص ١٠٤.

(٦) Liberal Theology (٥).

(٧) راجع: إیان باربور، العلم والدين، النص الإنگلیزی، ص ١٠٦، الترجمة الفارسیة، ص ١٣١.

بحوث ومقالات

❖ معنى ومبني التجدد في علم الكلام

د. أحد قرا ملكي

❖ القرآن هو العقل الوسيط

د. خليل أحمد خليل

عن الأساس، والدليل المحكم للحكم الإلهي المستنبط من المصادر الفقهية. وتقع هذه الوظيفة على عاتق علم الكلام، والمتكلمين؛ حيث يقومون وعن طريق ذكر الشواهد والمؤيدات العقلية، والعملية بتأييد ذلك الأمر، ويدافعون عنه من خلال الإجابة على الإشكالات والشبهات.

العلوم الجديدة ومساندتها العقائد الدينية:
ينتقل الأستاذ مطهري إلى قضية أخرى، مفادها: إن العلوم الجديدة، هي من العوامل المؤثرة في تغيير، وتجدد علم الكلام. وطبعاً ما يستخلص من كلامه ليس أكثر من تصريحه بأن التقدم العلمي الجديد، أعطى تأييدات جديدة لأصول وفروع الإسلام. وذلك شبيه بما ذكره العلماء في مجال نظم، واتقان عالم الطبيعة؛ حيث يمكن الاستفادة منه في بحث برهان اتقان الصناع. وأيضاً في موضوعات باب الحياة والغائية، وكذلك في برهان الهدایة الذي كان له اهتمام خاصٌ من قبل المرحوم مطهري؛ حيث أكد في آثاره الكلامية القيمة على الدور التأييدي لمثل هذه الإنجازات العلمية، على مسألة معرفة الله. يقول حول دور العلم التأييدي في برهان النظم:

«كَلِمَا تَعمَقَ الْعِلْمُ الْتِجْرِيُّ فِي دراسة الطبيعة، فَإِنَّهُ يَتَعرَّفُ أَكْثَرًا عَلَى أَنْظُمَتِهَا الدَّاخِلِيَّة؛ مثلاً: تَمْكِنُ عِلْمُ التَّشْرِيعِ الْقَدِيمُ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى مَعْرِفَةِ بَعْضِ أَنْسَجَةِ الْعَيْنِ؛ لَكِنَّهُ لَمْ يَصُلْ إِلَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ الْمَعْرِفَةُ الْدَّقِيقَةُ لِلْعِلْمِ الْحَدِيثِ فِي هَذَا الْمَجَالِ. فَالْعِلْمُ يَتَمْكِنُ مِنْ اِكْتِشافِ أَنْظَمَاتِ أَكْثَرَ مِنْ خَلَالِ تَقْدِيمِهِ؛ هَذِهِ الْأَنْظَمَاتُ الَّتِي تَحْكِي فِي الْأَغْلَبِ عَنْ وُجُودِ الْإِنْتَخَابِ، الْإِخْتِيَارِ، التَّدْبِيرِ وَالْإِرَادَةِ»^(١).

وحول برهان الهدایة في القرآن الكريم، خلص إلى اعتباره دليلاً مستقلاً على معرفة الله، ومتفرعاً على أصل: «اتقان الصناع». ولم يحصل التفات بعد القرآن الكريم إلى هذا الأصل، ولكن بالتدريج، وعلى أثر التقدم الفكري والعلمي، أصبح من الواضح أن هذا أصل مستقل بنفسه. واعتبر أن هذا الأمر لائق بالبحث والتحقيق... لا يتعلق أصل الهدایة بهيكليّة الأشياء، بل يتعلق بعملها. والأعمال التي تقوم بها الأشياء هي من اللوازم الجبرية والقهرية لهيكليتها، ولا يوجد دليل مستقل (غير برهان النظم)،

وعليه؟ وقبل التعرض لهذا البحث التعرف إلى أقوال، وآراء المختصين في هذا المجال.

الأستاذ مطهري والكلام الجديد:

بداية نتعرض لرأي الأستاذ مطهري، الذي يعتبر من أوائل الذين طرحوا فكرة الكلام الجديد في مجتمعنا؛ حيث قال في هذا المجال: «بما أن الكلام هو علم يؤدي إلى وظيفتين: الأولى رد الشبهات والإشكالات، التي ترد على أصول وفروع الإسلام، والأخرى توضيح مجموعة من المؤيدات لأصول وفروع الإسلام؛ وبما أنه وردت في عصرنا شبهات جديدة، لم تكن في القديم، ووجدت مؤيدات رافقت التقدم العلمي الجديد؛ ثم إن العديد من الشبهات القديمة أصبحت في عصرنا هذا بلا موضوع، وأيضاً، لأن الكثير من المؤيدات الماضية فقدت قيمتها؛ لذلك من الواجب العمل على تأسيس الكلام الجديد»^(١). ثم إن الأستاذ يقدم مجموعة نماذج من مسائل الكلام الجديد، التي سنعرض لها في مكانها.

ساحة التجدد في علم الكلام:

يتضح من كلام الأستاذ مطهري، إنَّ هنالك بعدين وساحتين للتجدد في علم الكلام:
الأولى: التجدد في الشبهات، أو المسائل الكلامية. والأخرى: التجدد في المؤيدات والأدلة.

ثم إن الثابت في الكلام القديم والجديد، هو رسالة ووظيفة هذا العلم؛ وهي عبارة عن إثبات، وتأييد أصول، وفروع الإسلام، والدفاع عنها؛ من خلال الإجابة على الشبهات. والنقطة البارزة في كلام الأستاذ مطهري، هي أنه لم يحصر رسالة علم الكلام في الدفاع عن أصول الدين؛ بل اعتبر أن الدفاع، وتأييد فروع الإسلام هو أيضاً من جملة وظائف علم الكلام؛ ذلك لأنَّه يمكن النظر إلى فروع الدين الإسلامي في زاويتين، الأولى في زاوية البحث عن ماهية دليلها الفقهي؛ وهذه وظيفة علم الفقه التي تقع على عاتق الفقهاء، والأخرى من زاوية البحث عن ماهية فلسنته؛ أي البحث

(١) المفكر الشهيد الأستاذ مرتضى مطهري، التوحيد، ص. ٦٧.

(١) الوظائف الأصلية، والوظائف الفعلية للحوارات العلمية، ص. ٤٩.

آخر، ما ذكره «روسو» ليس هو فقط نتاجاً لتاريخ العلم، والمشاهدات العينية؛ بل إنما هو شيء من مستقبل تاريخ العلم، وتاريخ الفكر الفلسفي الأوروبي. لا بل إنَّ الجزء المضحك، والمُؤسف منه، ما يتعلّق بتاريخ الفكر الفلسفي في أوروبا، وليس تاريخ العلوم الجديدة...^(١).

يمتاز الفكر الفلسفي الأوروبي. كما وضحه الأستاذ في هذه المقالة، والمقالات الأخرى. بالأمور التالية:

أولاً: جرت العادة في مواضيع معرفة الله، والتوحيد على الاستعانة بالجهولات البشرية، واعتبار أن عجز البشر عن توضيح الوجود، دليل على تدخل الإرادة الغيبية في العالم.

ثانياً: تصوير العلاقة بين الله والعالم على أنها في لحظة ظهور الخلق، وليس في إطار نظام حاكم على الوجود، ونظام الأسباب والمسببات. وكأنهم كانوا يعتبرون هذين الأمرين غير قابلين للجمع كما قالوا: راج في العالم فكري يهودي^(١) خاطئ حول معنى الخلق، حيث كانوا يربطون الخلق دائماً «بالآن» (اللحظة) وينسبونه إليها؛ بمعنى أنهم في أي وقت أرادوا تصور موضوع مخلوقية العالم، أو مخلوقية الحياة كان يتبادر إلى ذهنهم مباشرة أنه في أي «آن» خرج من العدم إلى الوجود، وفي أي وقت كانت بدايته؟.

النقطة الثالثة: تتعلق بمسألة التوحيد، ومعرفة الله، وتتلخص بأن مجموعات

كبيرة أرادت معرفة الله تعالى من خلال الأسلوب المنفي، وليس الأسلوب الإيجابي؛ أي أنهم أرادوا البحث عن الله ضمن مجھولاته، وليس ضمن معلوماته، فعندما يعجزون عن توضیح علل بعض الحوادث كانوا يلجأون إلى الاستعانة بالله؛ ولهذا كانوا يعطون أهمية لمسألة «الآن» الأولى في ظھور الحياة، والعالم؛ لتوضیح مسألة مخلوقية الحياة والعالم؛ ذلك لأن بداية الحياة والعالم كانت مجھولة لهم أكثر من أي شيء آخر.

من أحد نماذج إعجاز القرآن الكريم: إنه لا يوجد فيه أي أثر لهذين الفكرين، غير الصحيحين، على الرغم من شيوع هذين الانحرافين في تاريخ الفكر البشري، ولم ينج منه إلا من ارتوى من معنِّ القرآن الكريم.

٧٧ - ص ١، ج ١، المقالات الفلسفية (١)

(٢) إشارة إلى الآية القرآنية الكريمة التي تتحدث حول عقائد اليهود: «وقالت اليهود يَدُ الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا». (المائدة: ٦٤).

المذكورة دوراً إصلاحياً؛ بل كان مهدماً؛ لهذا شاهدنا الأستاذ في كتاب: «الفطرة» وبعد أن قدم لأبحاث عميقية حول الفطرة يقوم بنقد نظريات بعض الفلاسفة الجدد حول منشأ الدين.

مبنی الشهادات الكلامية الجديدة:

يعتقد المرحوم مطهرى بأن ما يسمى بالتعارض بين العلم والدين، ليس هو في الواقع تعارضًا بين العلم، والدين، أو الإيمان؛ بل إنما هو تعارضُ الفهم الفلسفى الخاص للعلم والدين؛ لذلك فهو يعتقد بأن النظريات العلمية المختلفة حول ظهور الحياة لا تعارض نظريات الوحي حول الخلقة، إذا أخذت بغض النظر عن التفسيرات، والتوضيحات الفلسفية. وللتوسيع على هذا الأمر نقل جزءاً من مقالة: «التوحيد والتكامل». حيث يبدأ الأستاذ بالتذكير بكلام روسو صاحب كتاب «تاريخ العلوم» الذي اعتبر أن مسألة ظهور الحياة هي من إحدى المشكلات الفكرية، بعد أن طرح داروين نظريته حول مبدأ ظهور الإنسان، والحيوان. والمشكلة من وجهة نظر الكتاب المقدس هي أن الله قد أوجد من العدم مادة حية؛ بينما يعتقد الماديون أن المادة الحية أوجدها. ثم يضيف روسو: «العلم الإيجابي لا يقبل الخلق ولا الوجود من ذاته». وبعد نقل هذا المطلب قال الشهيد مطهرى:

«حاولوا مرة أخرى أن تطالعوا أقوال هذا العالم الكبير. أي روسو، الذي يدعى الإحاطة الكاملة بعلوم العالم. القديم حتى عصره. وتعرفوا على فحوى حديثه لدركتوا تصوره حول مفهوم الخلق، والله. فهو يعتقد أن العلم الإيجابي لا يقبل الخلق ولا الوجود من نفسه، والحق معه؛ ذلك لأن التصور الذي يحمله عن مسألة الخلق لم يترتب عليه العلم.

ويمكن أن يقال: إن حديث روسو، والآخرين هو حديث العلم، حيث إنهم يوضّحون ما وصل إليه العلم، وهذا إشكال على تقدّم العلم. يجب أن أؤكد أن الذي أخرج هذه الفرضيات على هذا النحو لم يكن من خلال المشاهدات الإيجابية، والتجارب العينية؛ حيث يمكن توضيح قضية التجارب العلمية بشكل آخر أيضاً؛ ذلك لأن التصور الخاص الذي يملكونه المفكرون في معنى، ومفهوم الخلق، وطبيعة الفكر الفلسفـي الخاص، الذي حكم على الأذهان أوجـب أن تطرح هذه المسائل بهذا الشكل على مدى التاريخ. وبعبارة

الحيوانات دفعياً، والواقع أن ما تنص عليه فرضية التكامل، أن حياة أنواع الحيوانات كانت في إطار المثير التكاملي الطويل؛ بمعنى أن ظهورها كان ضمن الأزمنة الطويلة، وعلى شكل تدريجي، وليس بشكل دفعي ومستقل، هنا تعارض الفرضية العلمية مع إحدى التعاليم الدينية، إذا لم نأخذ بعين الاعتبار أي نوع من أنواع التحكم الفلسفية، أو الفهم الكلامي. وفي النتيجة: أصبح العلم الجديد منشأ تعارض بالنسبة للدين.

وقد التفت الأستاذ مطهري إلى هذا الإشكال حيث قال:

«يمكن أن يقال: إن أصل التحول بشكل عام (وبالخصوص الداروينية فيما يتعلق بفرضيته في هذا الأمر، وهي أن أصل الإنسان من القرد على الرغم من إنكاره في وقت لاحق) هو شيءٌ مخالف لتعاليم الكتب المقدسة من تلك الجهة، على أساس أن الكتب المقدسة تعتبر أصل خلقة الإنسان من الإنسان الأول المسمى (آدم)، الذي يبدو على الظاهر أنه خلق من التراب».

وقد بين الأستاذ مطهري أربع نقاط في الإجابة على الإشكال المتقدم ذكر منها نقطتين:

١ - ما هو مطروح في العلم حول التكامل أمراً: الأولى: أصل التكامل، والثانية: كيفية ذلك. إن أصل التكامل هو قانون علمي مسلم به، لكن هناك فرضيات كثيرة حول كيفية ذلك، ولم يتم إثبات أي واحدة من تلك الفرضيات باعتبارها قانوناً علمياً قطعياً. ومن النظريات التي طرحتها داروين نظرية ظهور أنواع التدريجي، وأن أصل الإنسان من القرد، ثم ردت هذه النظرية فيما بعد، واستبدلت بنظريات أخرى من قبيل: نظرية (موتا西ون)، ولا يجب اعتبار تعارض هكذا فرضية مع النصوص الدينية باعتباره تعارضًا بين العلم والدين.

٢ - لو قررنا أن نأخذ الفرضيات العلمية على أساس أنها معيار الحكم فيما يختص النسبة بين العلم والدين، فمن المرجح والمناسب أن نعتبر الفرضيات العلمية الجديدة، أمثال فرضية «موتا西ون» هي الملاك في ذلك. فهذه النظرية لا تعارض النصوص الدينية فيما يتعلق بخلق الإنسان: ذلك لأنه على الرغم من أن النصوص الدينية طرحت مسألة خلق آدم من التراب بشكل مستقل، ولكنها بَيَّنت على شكل فعل وانفعال يحصل في الطبيعة، مثلاً: جاء في بعض الروايات أن طينة آدم جُبِلت لَمْدة أربعين يوماً. وعلى أساس أننا لا نعلم شيئاً عن جزئيات تلك المسألة، فيمكننا أن نفرض أن المراحل

القرآن الكريم هو العلم التوحيدية الأولى، الذي قدم الله تعالى للبشر ضمن النظام الموجود، والمشهود، وفي إطار العلل والمعلولات، وسُنن الخلق الجارية، ومن خلال الأسلوب الإيجابي، والعلوم، وليس بواسطة الأسلوب المنفي، والعلل المجهولة»^(١) وقد عبر الأستاذ الشهيد عن تأسفه العميق لطغيان هكذا أفكار منحرفة في الأجراءات الفكرية، والفلسفية الغربية؛ حيث قال: «في الواقع عندما أطالع مجريات تاريخ العلم في العصر الجديد، وأواجه الأسلوب واللون الفكري الفلسفـي الخاصـ، الذي أصبح على العلم، فإنه أقع تحت تأثير وتآثر شديدين، وأتمنى لو أن العلماء كانوا يططلعون على أسلوب الفكر الفلسفـي، الذي نما في أجواء القرآن الكريم طوال أربعة عشر قرناً، لينجوا من الخلط بين ماء العلم الزلال، وذاك الفكر اليهودي. ويزداد التآثر، عندما يشاهد الشباب، الذين بدأوا يتعرفون على العلوم، كيف أنهم يلوثون أفكارهم، ولا يملكون قدرة التعرف، والفصل بين ذاك الفكر الصحيح، وتلك الأفكار الملوثة. هذه هي الأشياء التي يططلعونها في الكتب الفلسفـية الجديدة، أو تواريـخ العـلوم... فبدأوا يعتقدون أن فرضية الخلقة، ووجود الله تعالى، هي فرضيات قد أبطلتها المشاهدات العلمية منذ سنوات طـولـة، وأخذـوا يتصـورـون أن فـرض وجود الخلقة، والـخالق لا يوجد إلا في ظـلـمة تقـالـيد الآباءـ، حيث لا آثار لهـذا الـأـمـرـ في ضـيـاءـ الـعـلـمـ...»^(٢).

سؤال وجواب:

يمكن أن يطرح السؤال التالي هنا: وهو أن ما قيل حول تعارض العلم، والدين يرتبط بتعليمات الدين القطعية من أمثل: التوحيد، والاعتقاد بوجود خالق للوجود؟ هنا في هذه القضية لا يوجد أي تعارض بين نفس العلم التجاري، والدين، وإنما ينشأ التعارض من الأفكار الفلسفـية، والكلامية الخاصةـ. نعم، لا يمكن خلاصـة النسبة بين العلم والدين في هـذا مـسـائلـ، على الرغم من أنه تسـيـطـرـ في بعض الأوقـاتـ النسبة المذكورة على الفرضيات العلمـيةـ، والنـصـوصـ الـديـنـيـةـ؛ مـثـلاـ: فيما يـتعلـقـ بـفـرضـيـةـ التـكـامـلـ، فـمـنـ أـهـمـ المـشـكـلـاتـ الـتـيـ طـرـحـتـ تـعـارـضـ تـلـكـ الـفـرـضـيـةـ، وـنـصـوصـ الـكتـابـ الـمـقـدـسـ (ـسـفـرـ الـظـهـورـ)، الـتـيـ تـدـلـ عـلـىـ نوعـ مـنـ الـخـلـقـ الـمـسـتـقـلـ، وـكـوـنـ وـجـودـ أنـوـاعـ الـكـتـابـ الـمـقـدـسـ).

(١) المصدر نفسه ص ٦٣ - ٦٤ (المقالات الفلسفـيةـ).

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٠ - ٨١.

ثم إنه أشار إلى مسألة حقوق المرأة في الإسلام؛ باعتبارها إحدى المسائل الكلامية الجديدة، والهامة. ووضح دليل اهتمامه بذلك على هذا النحو؛ حيث قال: «أمضيت في الثلاث أو الأربع سنوات الأخيرة قسماً كبيراً من وقتِي في معالجة المسائل الإسلامية، التي تتعلق بالمرأة وحقوقها، وقد قمت بذلك ليس فقط لأنني كنت أشعر بوجود انحرافات في هذا المجال؛ بل القضية أن مجموعة أخذت تطرح في خطاباتها، وفي المدارس، والمقالات، والكتب التي تكتبه رأي الإسلام في هذا المجال بشكل خاطئ»، وأصبحوا مصداقاً للمثال القائل: (أنت تقتل وأنت تقرأ العزاء)، ليصبحوا بذلك أدلة التبليغ ضد الإسلام. وللأسف فإن المجتمع الإسلامي غير مطلع على منطق الإسلام في هذه الموضوعات كما الحال في العديد من الموضوعات الأخرى؛ لذلك نجد، للأسف، أشخاصاً كثيرين، أعم من النساء والرجال أصبحوا متشائمين من الإسلام؛ لذلك وجدت من الضروري توضيح منطق الإسلام في هذا المجال؛ ليعلموا أنه ليس فقط لا يمكن الإشكال على منطق الإسلام؛ لا بل إن منطق وأسلوب الإسلام فيما يتعلق بالمرأة، وحقوقها، ووظائفها أفضل دليل على أصالة، وحقانية ذلك الأمر، وكونه أمراً فوق البشر».

الوعي والنمو الفكري للجيل الجديد:

النمو الفكري للجيل الجديد واحد من مبني، وأسباب التحول والتجدد في ساحة الدين، وعلم الكلام. وبعد هذا النمو الفكري من نتاج التطور، والتقدم العلمي، والفنى، والتغيرات الثقافية في القرون الأخيرة. لقد أدى هذا التطور والتقدم إلى ظهور مجموعة من المجهولات التي شغلت ذهن البشر، وحرضه على التساؤل، والتفكير بالرغم من رحلة للعديد من المجهولات العلمية والفكرية. وكما يقول الشاعر مولوي: الجواب من العلم كما السؤال؛ الهدى يأتي من العلم كما الضلال، وينذر الأستاذ مطهري في مسألة قيادة جيل الشباب بأن من إحدى الضروريات لقيادته، وهدایته، هو معرفة هذا الجيل. وأشار إلى أن هذا الجيل يمتلك إحساسات لم تكن موجودة في السابق؛ لذلك يجب إعطاءه الحق، وفي المقابل يوجد عنده مجموعة من الانحرافات الفكرية، والأخلاقية، يجب إيجاد الحلول لها. ولن نتمكن من إيجاد حلول لهذه الانحرافات، والإشكالات إذا لم نأخذ بعين الاعتبار الإحساسات، والأفكار، والأهداف

التي يجب أن تقطعها الخلية الأولى في مليارات السنين، لتقطع مراحل التكامل، لتصل إلى الإنسان، قد قطعها بسبب الشرائط الخاصة، والقدرة الإلهية في مدة أربعين يوماً. فكما أن نطفة الإنسان يجب أن تقطع مرحلة التسعة أشهر في الرحم، وكذلك الأجداد الحيوانية يجب أن تقطع تلك المراحل التي ستستمر لمليارات السنين.

التوضيحات والاستنتاجات الخاطئة:

إلى هنا كان الحديث يدور حول دور العلوم الجديدة في تحول، وتجدد علم الكلام، وتكلمنا أيضاً، حول دور الاعتقادات الفلسفية في هذا المجال. والرجوع إلى آثار الأستاذ مطهري في مجال الدين والباحث الكلامية. بالخصوص المباحث الكلامية الجديدة، وتعتبر الاطلاع على أسباب، ومباني أخرى لعرض المسائل الكلامية الجديدة، وتعتبر التفسيرات الخاطئة. سواء كانت عن عمد أم سهو، للعقائد والأحكام الإسلامية أحد هذه الأسباب الأكثر تأثيراً. ويظهر دور هذا العالم في أغلب الأوقات في طرح بعض الشبهات، والاعتراضات على التعاليم الإسلامية. حيث كانت تطرح هذه التفسيرات الخاطئة تارة من المسلمين، وتارة أخرى من قبل المستشرقين. وقد ساهمت في إيجاد أرضية لطرح إشكالات، واعتراضات ضد الإسلام. وهنا تأتي رسالة المتكلم التي تتجلى في التوضيح الصحيح للعقائد، والأحكام التي أسسَت على الخطأ؛ ولهذا تعتبر مسألة توضيح وتبين العقائد، والأحكام الإسلامية من أهم وظائف علم الكلام^(١).

يقول الأستاذ مطهري في مقدمة كتاب «العدل الإلهي». هذا الكتاب ذو الأهمية الكبيرة في الإلهيات الجديدة. الدين الإسلامي المقدس هو دين مجھول، وقد حرّفت حقيقة هذا الدين بالتدرج عند الناس؛ والسبب الأساسي هو التعليمات الخاطئة، التي كانت تقدم تحت اسم الدين. وفي الوقت الحاضر يتلقى هذا الدين المقدس أكثر الضربات من قبل أولئك الذين يدعون الدفاع عنه. وقد تسبّبت حملة الاستعمار الغربي، وأتباعه العلنية، وقصور، أو تقصير الكثير من يدعّي الدفاع عن الإسلام في هذا العصر في أن تتعرّض عقائد الإسلام. أعم من الأصول والفروع. لهجوم واسع. لهذا السبب رأيت من الواجب على أن أقوم بوظيفتي في هذا المجال قدر استطاعتي.

(١) لمزيد من الاطلاع حول وظائف علم الكلام يراجع كتابنا مقدمة على علم الكلام.

واحد. لا يُجب التوقف ملياً في كل زمان، وعند كل شرط لاختيار الطريقة المناسبة التي يتم ذلك من خلالها^(١).

ثم يذكر الأستاذ مطهري في سبيل تأييد المسائل المذكورة شواهد من القرآن الكريم، والروايات الإسلامية، ومنها الآية: ١٢٥ من سورة النحل^(٢)؛ حيث يطلب الله تعالى من الرسول الأكرم ﷺ الاستعانة بالأساليب الحكمية، والخطابية، والدعوة والتي هي أحسن؛ وذلك لدعوة الناس إلى الحق.

النموذج الآخر: هو التنوع في معجزات أنبياء الله ﷺ، والتي اعتبر الإمام الهادي ع فلسفتها تكمن في اختلاف الشرائط، واختلاف المخاطبين من جهة الزمان^(٣). الشاهد الآخر، حديث الرسول الأكرم ﷺ المعروف؛ حيث قال: «نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم»^(٤).

مقتضيات الزمان:

مقتضيات الزمان من أحد المحاور الهامة للتجدد؛ حيث ترك هذا التجدد أثره على جميع العلوم الإسلامية، ولم يقتصر على علم الكلام، أو الوظائف التبليغية. ويبرز أصل التجدد، والتحول في الزمان في ساحة الفقاهة، والاجتهاد التي أكد عليها الإمام الخميني(قده)، وبلغت أهمية هذا الأصل عند الأستاذ مطهرى إلى إفراده بحاثاً موسعة في تبنيه بلغت مجلدين من آثاره. وقد بدأ الأستاذ مقدمة كتابه «نظام حقوق المرأة في الإسلام» بهذه العبارة:

«تفرض علينا مقتضيات عصرنا أن نعود ونقيم العديد من المسائل من جديد وأن لا نكتفي بالآراء القديمة»^(٥).

وتبدأ مقدمة كتاب «الإسلام ومقتضيات الزمان» بهذه العبارة: «تعتبر مسألة الإسلام ومقتضيات الزمان من أهم المسائل بالنسبة للمفكرين المسلمين في عصرنا الحاضر،

(١) الأحاديث العشرة، ص ٢١٢ - ٢١٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٣.

(٣) «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بما تي هي أحسن...». (النحل: ١٢٥).

(٤) أصول الكافي، ج١، كتاب العقل والجهل، الحديث ٢٠، ص١٨.

(٥) إننا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم. المصدر نفسه، الحديث ١٥.

المتعلية التي يملكونها هذا الجيل، ولكن هذا غير ممكن من دون احترام هذه الإحساسات والأفكار.

لم تكن الأفكار واضحة بمقدار كافٍ عند الجيل القديم، ولم تكن هذه الإحساسات تملك هذه الأهداف العالمية... ويكمّن التفكير الأصيل في أن نعرف، وقبل كل شيء حاجات هذا الجيل، الحاجات الفكرية والعقلية. والتي تدل على نوع من الوعي؛ أي معرفة ذاك الشيء الذي يشعر به، والذي لم يشعر به الجيل الماضي.

كانت الأبواب في الماضي مغلقة في وجه الناس، ولم يتمكن الشخص من الاطلاع على العالم الخارجي؛ فالموجود في مدينة لم يكن عنده اطلاع على ذاك الذي في مدينة أخرى. والذى هو في مملكته لم يكن عنده علم بمملكة الآخر. اليوم فتحت هذه الأبواب، فهو يرى الدنيا وهي تتجه نحو التطور... كان المستوى الفكري للقدماء أقل مما هو عليه اليوم، وقليلًا ما كان القدماء يقعون في الشك، والتردد، أو السؤال. الآن أصبح هذا الأمر كثيراً ما يحصل، ومن الطبيعي أنه كلما تقدم الفكر تعرض عليه أسئلة متنوعة لم تكن موجودة في السابق؛ ومن الضروري إيجاد الحلول لشكه، وتردداته، والإجابة ل حاجياته الفكرية، ولا يمكن إيكاله للعوام؛ بل على العكس هذا الأمر، يؤمن الأرضية المناسبة لتعرف الناس على حقائق، ومعارف الإسلام^(١).

يمكننا من خلال الرجوع إلى الأمور التي ذكرنا أن نتعرف على نموذج آخر من التجدد في علم الكلام عند الأستاذ مطهرى؛ وهو التجدد في أسلوب البحث، والتحدث مع المخاطبين. ويعود مبنى هذا التجدد إلى القاعدة العقلائية التي تندرج فيها المفاهيم الكلامية، وهي معرفة الخصائص الفكرية، والروحية، واللغوية للمخاطب. إذاً وعلى هذا الأساس كلما طرأ تجدد وتحول على هذه الخصائص، فيجب حينها على المتكلم أيضاً أن يوقف بين أسلوب البحث، ولغته مع ذلك الأمر.

ليست قيادة أي شخص، أو جيل متساوية في جميع الأحوال، والرأي؛ حيث تختلف الأشكال، والكيفيات، وتحتختلف الوسائل التي تستخدم، ولا توجد طريقة واحدة مشخصة تصدق على جميع الأشخاص، وجميع الأجيال في جميع الأزمنة بشكل

(١) العدل الإلهي، الطبعة الثامنة، ص ١٠ - ١١.

الذين يعدون زيدة الطبقات الاجتماعية من حيث الكيفية؛ ومن حيث الكميه؛ لأنهم أكثر الأشخاص موقفية^(١).

تعتبر مسألة مقتضيات الزمان إلى جانب كونها ذات أهمية كبيرة مسألة معقدة ودقيقة. لا بل تعرض العديدون للسقوط في هذا الموقع. يعتقد الأستاذ مطهري أنه يجب الوقوف على مسائلتين هنا:

الأولى: المعرفة الصحيحة للإسلام؛ باعتباره فلسفة اجتماعية، وأيديولوجية إلهية، وأداة فكرية، وعقائدية بناء، تتحقق السعادة من خلالها.

الثانية: معرفة شرائط، ومقتضيات الزمان، والتفريق بين الواقعيات الناتجة عن تكامل العلم، والصناعة، والظواهر المنحرفة، وأسباب الفساد، والسقوط.

لا بل أدى عدم الاطلاع الصحيح على هذين الأمرين إلى إيهام مسألة الإسلام، ومقتضيات الزمان حتى ظن بعضهم أن النسبة بين هذين الأمرين هي نسبة أمرين متضادين، ومتعارضين، يجب اختيار أحدهما؛ إما الخضوع لتعاليم الإسلام، ورفض كل شكل من أشكال التجدد، والتفريق بين الحركة، والزمان، وإما يتوجب علينا الخضوع لمقتضيات الزمان المتغيرة، واعتبار الإسلام ظاهرة تتعلق بالماضي فقط.

مشكلة هؤلاء الأشخاص هي أنهم يعتبرون ثبات، وعالمية الإسلام، وعدم قبوله للنسخ. هذا من جهة، وحيوية الإسلام التي ترتبط بنظام التقنيين من جهة أخرى شيء واحد. الواقع أن هاتين الجهاتين منفصلتان عن بعضهما ما: أي يجب أن نفرق بين مسائلتين في الإسلام؛ الأولى: ثبات وعالمية الإسلام، التي تعني عدم قبوله النسخ، والثانية: حيوية قوانين الإسلام، التي يجعلها تقدم أجوبة مختلفة ل مختلف المسائل في ظروف الحياة المتنوعة.

وارتكب هؤلاء مغالطة أخرى في مجال توضيح «مقتضيات الزمان». وكأنهم كانوا يتصورون أن خاصية الزمان أنها تجعل كل الأشياء حتى حقائق العالم بالية، وقديمة والواقع أن التركيبات المادية هي التي تبقى، وتصبح قدية في الزمان. أما حقائق العالم فهي ثابتة، لا تتغير. فهل أصبح جدول فيثاغورس قدّيماً؛ لأن عمره يزيد على ألفي سنة؟! وهل كلام سعدي «أفراد الإنسان هم أعضاء جسد واحد» قد نسخ، وأصبح بغير

(١) نظام حقوق المرأة في الإسلام، ص ١٢.

فائدة مرور سبع مائة عام عليه^(١)، وهل اندرست مفاهيم العدالة، والمروعة، والوفاء، والإحسان؛ بسبب تناقل الألسنة منذآلاف السنين؟!

من دون شك؛ في زمن الكهرباء، والطائرات نواجه مسائل جديدة، يجب الإجابة عليها. ولكن لا يوجد أي ضرورة توجّب إذا حلّت الكهرباء مكان المصباح النفطي، والطايرة مكان الحصان إيجاد مسائل حقوقية ترتبط بهما من قبيل: الشراء والبيع، والغضب، والضمان، والوكالة، والرهن، أو أنه إذا كان القديمة يركبون الطائرات يجب علينا تغيير نظام حقوق الأولاد على الأهل، وحقوق الأهل على الأولاد بالكلية^(١).

خطر التججر والجهل (القسوة والتغريب):

يعترض هذه المسائل خطران بشكل مستمر؛ الأول: خطر التججر، والآخر: الجهل. وما نوعان من الانحراف عن طريق الاعتدال، وهما آفتاب فكريتان تصيبان الإنسان؛ تؤدي الآفة الأولى إلى التوقف، السكون، الجمود عن التقدم، والتطور. وتؤدي الآفة الثانية إلى السقوط، والانحراف.

يعتبر الإنسان المتحجر أن كل جديد هو فساد، وانحراف. والإنسان الجاهل، الطالب للتجدد، يحاول توجيه كل ظاهرة جديدة تحت اسم مقتضيات الزمان. والجميع يضع ذلك في حساب تطور وتقدم العلم.

تفق هاتان الفرقتان حول هذا الأمر؛ وهو أن كل وضع كان في القديم، فهو من ضمن المسائل، والشعائر الدينية. وتحتلوان في اعتقاد المتحجر الحفاظ على هذه الشعائر. ويستنتج المجدّد الجاهل أن أساس الدين يلزم القدم، والارتباط بالسكون، والثبات. ثم إن هذين الرأيين كانوا السبب الأساس في ظهور فكرة عدم تلاؤم العلم، والدين.

خالف الإسلام هاتين الفرقتين، واعتبر أن ما يتعرض له الإسلام من خطر، إنما هو من قبلهما. الطريقة التي عمل بها المتحجرون والجهالون فيما يتعلق بالشعارات الدينية القديمة، هي التي شخصت المجددين الجهلة؛ حيث اعتبروا الإسلام مخالفًا للتجدد. هذا من جهة. ومن جهة أخرى؛ فإن التقليد الأعمى، والتغريب، والاعتقاد بأن

(١) الإسلام ومقتضيات الزمان، ج ١، ص ٦.

الدين، كما أن هناك أدلة قديمة، أصبحت خارجة عن الاعتبار. وأيضاً هناك شبكات جديدة لم تكن في القديم، كما يوجد شبكات قديمة أصبحت في عالم النسخ.

٣. تلعب العلوم الجديدة أدواراً مختلفة في الكلام الجديد:

أولاً: هي تضع شواهد، وأدلة جديدة في اختيار المتكلمين. وقد أوضحنا ذلك في باب برهان النظم، والهداية في بحث معرفة الله.

ثانياً: أنها أصبحت منشأ لظهور أفكار، وتأملات، واستنتاجات جديدة في مساحة الدين؛ وقد يبين ذلك في باب تفسير القرآن الكريم.

ثالثاً: تلعب العلوم الجديدة دوراً في عرض، وتقديم مسائل جديدة في مجال الإلهيات. كما أوضحنا ذلك في باب خلق آدم. وعلى الرغم من عدم وجود تعارض هنا،

ولكن هذه المسألة في أساس طرحها هي جديدة.
؛ لا تتمانع العادة العادلة قيامها على المذهب الذي ينادي به ديننا، إنما

نشأ الشبه بينهما من المقدمات الفلسفية، والكلامية التي حكمت أذهان بعض المحدثين للعلوم حين البحث، والتحقيق، والتوضيح للمعطيات التجريبية والعلمية؛ لذلك كانت تستند تحقیقاتهم، وتحليلاتهم على ذاك الأساس الفلسفي، أو الكلامي حين وصلوا إلى نتائج متعارضة مع تعاليم الدين.

٥. الاستنتاجات، والتوضيحات الخاطئة للعقائد، والآحكام الإسلامية، هي أحد أسباب، وعلل طرح المسائل، أو الشبهات الكلامية الجديدة، التي كانت تصدر عمداً، أو سهواً عن المتدينين أو غيرهم. وشكلت حقول المرأة في وجهة تظاهر الإسلام أحد النماذج الواضحة لهذا الأمر.

٦. النحو الفكري للجيل الجديد عامل آخر من عوامل، ومباني المسائل الكلامية الجديدة. أما عوامل هذا النحو الفكري فهي متعددة، وأوضح مثال عليها هو النمو العلمي، وتطور الارتباطات.

٧. أساليب البحث، والمحاورة الكلامية التي تتناسب مع التغيرات الفكرية، واللغوية للداعين إلى التحول، والتجدد واحدة أخرى من مجالات التحول، والتجدد في علم الكلام. ثم إن الواقعيات التاريخية، والأدلة العقلية، والنقلية تثبت ضرورة وجود هكذا تحول، وتجدد.

٨. وتعتبر مسألة مقتضيات الزمان هي الأخرى من أسباب، ومباني التجدد في

بين الفرد، ومحيطة الطبيعي، والاجتماعي. ويصبح الصحيح عند الشخص ما يراه هو.

طبعاً هذا الأمر ليس بهذه السهولة، مع أننا لا نشك في أن عقائد الإنسان تتأثر من المحيط. ولكن يبقى أن هناك أساس فكري متحرر، لا يمكن إنكاره يملك القدرة على تجنب التأثير من أي شيء آخر عَبْر عنده الإسلام بالفطرة. ما هو مسلم عند العلماء، وال فلاسفة الذين يطالعون حول هذه المسائل، أنه يجب البحث عن اختلاف الرؤى الكونية في عالم المعرفة، أو ما يسمى اليوم باسم نظرية المعرفة. وهنا اختلفوا؛ حيث يقول أحدهم: إنه يجب معرفة العالم عن طريق العقل. ويقول آخر: عن طريق الحواس. ويقول ثالث: عن طريق تزكية النفس، والإشراق، والإلهام. حيث تختلف مراحل المعرفة بين عالم وآخر. بعضهم يعتبر مجال العقل محدوداً، بينما يعتبره آخرون غير محدود. وإلى ما هنالك من أبحاث أنجزت حول مصادر المعرفة وما يتعلق بها.

إذاً تبني إيديولوجية أي مكتب على رؤيته الكونية وتبني رؤيته الكونية على رأيه في المعرفة.

في الواقع ترتبط الحكمة العملية لكل مذهب بحكمته النظرية، وترتبط حكمته النظرية بمنطقه. إذاً يتوجب على كل مذهب توضيح منطقه قبل أي شيء آخر^(١).

نتائج البحث:

يتلخص رأي الأستاذ مطهري حول مسألة معنى، ومبني التجدد في الدين، وبالخصوص علم الكلام في النقاط التالية:

١. التجدد في علم الكلام، شيء تقتضيه وظيفة، ورسالة هذا العلم. وتتجلى الرسالة التي يحملها علم الكلام في أمرين:

- الاول: إثبات، وتأييد العقائد، والأحكام الإسلامية.
- الثاني: الدفاع، ورد الشبهات عنها.

٢. في عصرنا الحاضر هناك أدلة جديدة، يمكن استخدامها لإثبات، وتأييد تعاليم

(١) نظام حقوق المرأة في الإسلام، القسم الرابع، ص ١٠٣ - ١٢٤.

الدين، وعلم الكلام، وبما أن الإسلام دين خالد، وعالمي، فلا يمكن أن يغفل عن التغييرات الناتجة عن مقتضيات كل عصر؛ لذلك يتوجب على علماء الدين، وال المسلمين التعرف على التغيرات الفكرية، والثقافية، والاجتماعية الجديدة للبشر، ثم يتعرضوا للأمور الدينية انطلاقاً من هذه الأمور؛ ليتمكنوا من الإجابة على متطلبات البشر الجديدة في مجال أصول وفروع الدين.

٩. يُفترض الحذر من خطرين في مسألة مقتضيات الزمان، وهما: التحجر، والتغرب، واختيار طريق الاعتدال أي أن لا نحكم بكون كل ما هو قديم جزءاً من الإسلام، وأن لا نفرض كل ظاهرة جديدة محققة، وثابتة؛ بل يتوجب التعرف على الحق من الباطل، والتكامل من الانحطاط؛ من خلال الرجوع إلى المعايير الصحيحة، كالعقل والوحي. وبذلك نأمن الوقوع في خطر التحجر، والنجاة من ورطة التغرب.

١٠. يعتبر الاختلاف في شكل المعرفة، والرؤى الكونية واحدة أخرى من أسباب ومباني التجدد في تدين الأفراد، وعقائدهم الكلامية. وهذا أمر يحصل من خلال مطالعة تاريخ المعرفة البشرية، بالإضافة إلى تأييده من قبل التأملات، والتحقيقات الفلسفية أيضاً.

تعطي النقاط التي ذكرنا، والتي استألهمناها من آراء الأستاذ مطهري تصويراً شبه جامع عن معنى، ومبني التجدد في علم الكلام. ويتبين معنى التجدد في علم الكلام من خلال الالتفات إلى حالات التحول، والتجدد في هذا العلم، والتي هي عبارة عن: المسائل، الشبهات، الدلائل وأساليب البحث والمحاورة. وتشكل مبنياً وعلل ذلك الأمر الأمور التالية: الإيجابية، والسلبية في مجال العلوم، الفلسفة، المعرفة، الرؤى الفكرية، التفسير، والاستنتاجات الخاصة من التعاليم، ومقتضيات الزمان. وهذا الأمر هو ما يرتضيه الكاتب. وسنحاول الإطلاع على التفاصيل في هذا المجال بعد نقد ودراسة النظريات الأخرى حول موضوع بحثنا.